احنـــا اللـــي نحمـــي
الوطـــن ونبـــوس جراحـــو *

ان الغضبة التي كانت تنصب في وقت واحد على العدو المثلث : الغـزو الصهيوني والانتداب البريطاني والرجعية العربية المحلية وغير المحلية، كانت تنمو باطراد امام نمو المازق . في ذلك الوقت كان الريف يطور ، مع تصاعد التناقضات وانفجار الانتفاضات المسلحة ، وعيه الجديد من خلال احتكاك عناصره « المثقفة » بالمدن وتدفق عوامل التوعية :

يا ناس شو هالسخمة صهيوني مع غربي(٥٦).

ثم :

طلت البـارودة والسبع مـا طـل
يا بـوز البارودة من النـدى منبل

وكذلك :

بـارودتـو بيـد الـدلال اريتهـا
لا عاش قلبـي ليش مـا شريتهـا
وبـارودتو لقطـت صدى عقرابهـا
لقطت صدى واستوحشت لصحابهـا

وحتى في الاعراس :

والعريس هو منا — يا ويل اللي نحاربو ، بالسيف نقطع شاربو ، هز الرمح بعود الزين — وانتو يا نشامى منين ؟ واحنا شباب فلسطين ، والنعم والنعمتين — يا ابو العريس لا تهتم ، واحنـا شرابين الدم ، في بلعا ووادي التفاح** صارت هجمة وضرب سلاح ... يا بيض يا مـلاح ، بالله تزغرتنا ، يوم وقعة بيت امرين ، تسمع شلـع المراتين ، طلي علينا من البلكون(٥٧).

بل تصل الدعوة التحريضية للثورة الى مداهـا بصورة مدهشة ، فبعد كل الامثال الموروثة التي تنصح بالاستكانة ، وتشكل قيدا له سطوة التقاليد وعصمتها ، تضحى الاهزوجة الشعبية فجأة ، قادرة على ان تقول :

يا عربي يا ابن المجرودة
بيع امك واشري بارودة
والبارودة خير مـن امـك
يوم الثورة تفرج همك ...(٥٨)

ان « البارودة » تضحى ، بتراكم التناقضـات واحتدامها ، الاداة التي تحطم ذلك السور العريق من الدعوة للاستكانة ، وفجأة يصير بوسع هـذه « البارودة » ان تصل الى قلب المسالة ، وتصبح الثورة كوعد للمستقبل — افضل من اكثر ما في الماضي من دفء : الام ، العائلة . ولكن فوق هذا الاحتدام كله كان الاقطاع الاكليركي يتكلس بقيادته العاجزة وسطوته وحلفه مع الماضي .

وسط هذه التناقضات المركبة ، المحتدمة ،المتزايدة الاتساع والعمق ، والتي كانت تنصب على الفلاحين والعمال العرب بالدرجة الاولى ، ولكنها ايضـا تجثم بثقل على البورجوازية الصغيرة والمتوسطـة في المدن والفلاحين المتوسطين بالارياف ، كـان المازق يتصاعد باطراد ، معبرا عن نفسه بانفجارات مسلحة بين الفينة والاخرى (١٩٢٨ — ١٩٣٣): كان الاقطاع الفلسطيني الاكليركي ، من الجهـة الاخرى ، يشعر بان مصالحه هو الاخر مهـددة من قبل قوة اقتصادية صاعدة هي الرأسماليـة اليهودية المتحالفة مع الانتداب . ولكن مصالحه كانت مهددة ايضا من الجهـة المعاكسة : مـن الجماهير العربية الفقيرة التي لم تعد تعرف ايـن يتعين عليها أن تتجه ، فالبورجوازيـة العربيـة المدينية كانت ضعيفة غير قادرة على قيادة مرحلة التحول الاقتصادي التي كانت تجـري بسرعة لا مثيل لها ، وقسم صغير من هـذه البورجوازيـة تحول الى طحلـب متسلق علـى هامش النمـو الصناعي اليهودي واخذ طريقه ، بقدر ما كانت ظروفه الذاتية والظـروف الموضوعية المحيطـة بوجوده ، تتخذ مجرى معاكسا للحركة التي كانت تحتدم في المجتمع العربي ، وانفرد المثقفون الشبان الذين تحدروا من عائلات ريفية ومدينية غنية بلعب دور بارز في التحـريض الثوري فقد عادوا مـن جامعاتهم الى مجتمع يرفضون فيه صيغة العلاقات القديمة التي اضحت متخلفة ، وترفضهم فيه الصيغ الجديدة التي اخذت تبلور نفسها وسط التحالف الصهيوني — الامبريالي .

وهكذا امتزج ، بتلاحم لا نظير له ، النضال الطبقي بالمصلحة القومية بالمشاعر الدينية ، وتفجـر هذا

---

* يصف توفيق زياد ، هذه القصيدة بقولـه : « انني لا اعرف عملا شعريا يمكن ان يقف من ناحية الصلابة والتضحية والشجاعة في كفـة ميزان مع تلك القصيدة الرائعة » (عن **الادب والادب الشعبي** — دار العودة ، ص ٣٠) .

** قريتان قرب نابلس وطولكرم ، وقعت فيهما معارك بارزة ضد الاحتلال البريطاني في ١٩٣٦.